

\* دلاور علاء الدين

## أمريكا وإيران وشبح الحرب

تسبب التوتر الأخير بين إيران والولايات المتحدة في نقاش غير صحي بين الجهات الفاعلة المحلية في العراق والشرق الأوسط الأوسع، مما يعكس الحد الأدنى من الرؤية المحلية عن البيئة السياسية في واشنطن أو طهران. هذا في حد ذاته يمكن أن يكون ضاراً لما يبني عليه من سياسات وطنية والتعامل مع ديناميات القوى العالمية. والسؤال هنا هو: إلى أين يقود هذا التصعيد الأمريكي الإيراني وما هي السياسة التي سيكون من الأفضل للاعبين المحليين في العراق (وفي بلدان أخرى) اتباعها؟

### ترامب لا يعني الحرب

الرئيس ترامب يعتاد العالم على محادثاته البسيطة وتحركاته المفاجئة. ومع ذلك، في نهاية كل لعبة، يصبح من الواضح أن غرائزه هي لرجل أعمال مع التركيز على المكاسب قصيرة الأجل لبلاده. إنه لا يخفي حقيقة أن شعار حملته هي كل شيء من أجل المال، وليس الحرب، وأن حروبه هي من أجل الدخل وليس القيم. لم يتردد أبداً في حلب حلفائه العرب في الخليج، بينما كان يسخر منهم مع القليل من الاهتمام لنشر القيم الديمقراطية الأمريكية.

بالنظر إلى المشهد في الشرق الأوسط من وجهة نظر الرئيس ترامب، هناك العديد من الدول الغنية أو قابلة لأن تكون غنية مثل إيران والعراق وسوريا التي تحتاج إلى إعادة بناء، لكن الفرص التجارية الهائلة فيها متاحة فقط لمنافسي أمريكا، بما في ذلك الصين وروسيا وأوروبا. في العراق، دفعت الولايات المتحدة ثمناً بشرياً ومالياً باهظاً لتغيير النظام، لكنها حصدت الفول السوداني في المقابل. والأسوأ من ذلك، عندما أبرم الرئيس باراك أوباما والأوروبيون صفقة إيران النووية، فشلوا في: (أ) اغتنام الفرصة للحد من الهيمنة الإيرانية على أنحاء من الشرق الأوسط، لا بل جعلوا إيران أكثر ثراءً وقدرة على توسيع نفوذها؛ (ب) إتاحة الفرص التجارية الجديدة في إيران للشركات الأمريكية.

لذلك، فإن الهدف الرئيسي للرئيس ترامب ليس (لم يكن يوماً) بدء حرب كبرى، فهو يدرك أنها ستكون مكلفة ولا يمكن التنبؤ بنتيجتها ويكون مضرًا بإقتصاد بلاده. في حين أن استحدثاته للتوتر الإيراني مفيد لجاذبيته الشعبوية، إلا أن الحروب ممكن أن تضر بفرص إعادة إنتخاباته لأن الناخبين الأمريكيين يصوتون على أساس الاقتصاد وليس الانتصار في الحرب. لم يؤد انتصار جورج بوش على العراق في عام 1991 إلى إعادة انتخابه، بينما فاز بيل كلينتون فقط على بطاقة الاقتصاد. ويدرك ترامب أيضاً بأنه قادر على بدء حرب كبيرة، لكنه لا يستطيع ضمان نهايتها بشروطه الخاصة. وسيكون لديه أيضاً وقت عصيب في إقناع الكونجرس وحلفاء الولايات المتحدة (بما في ذلك إسرائيل) الذين لا يعتقدون أن الحرب مبررة.

لذلك، لم تتجاوز التحركات العسكرية الحالية للرئيس ترامب حتى الآن التدابير الرمزية والدفاعية؛ على سبيل المثال، لم يرد على التحركات الإيرانية الاستفزازية في الخليج، وحذر مستشاريه من دفعه نحو التصعيد العسكري. بطبيعة الحال، فإن التصعيد الحالي قد وصل بالفعل إلى مستويات خطيرة يمكن أن تنجم عن طريق طلقة عشوائية، سواء بالصدفة أو عن مخطط، ولكن حتى بعد ذلك من المرجح أن تظل الردود العسكرية محدودة.

### إن لم يكن الحرب، فماذا إذا؟

أشار الرئيس ترامب إلى أنه يريد أن يعود الإيرانيون إلى طاولة المفاوضات ويوافقوا على اتفاق ودي جديد. لقد جعل خط الهاتف متاحًا للإيرانيين للاتصال المباشر. لقد نجح هذا التكتيك مع الكوريين الشماليين، لكن من غير المرجح أن ينجح مع الإيرانيين الذين يختلفون بأكثر من جانب. ومع ذلك، يعرف ترامب أن القادة الإيرانيين هم سياسيون براغماتيون للغاية وقد أتقنوا فن المفاوضات. فالإيرانيون أيضا لا يريدون الحرب، وعلى الرغم من خطابهم المتشدد، فقد يأخذون المبادرة ويبدأوا التفاوض. لقد أثبت الإيرانيون في مفاوضاتهم السابقة أنهم أذكياء وقاسون وطولبون النفس. إنهم يعرفون كيفية استنفاد وإحباط المعارضين وينتهي بتحقيق معظم أهدافهم. ومع ذلك، فإن البيت الأبيض لا يتالي بهذه العوامل، علما بأن الحصار والعقوبات على إيران قاسية وأن المفاوضات المطولة ستكون على حساب الاقتصاد الإيراني الذي قد يزعزع استقرار النظام في النهاية أيضًا.

### رد إيران

بقاء النظام هو الشاغل الرئيسي والتركيز النهائي لقادة إيران. كدولة، هم قادرون تمامًا على التغلب على العاصفة الحالية على المدى القصير، لكنهم غير قادرين على محاربة القوة العظمى في العالم في حرب شاملة، ولا يمكنهم تحمل الحصار الاقتصادي الوجودي إلى الأبد. في حين أنهم لا يرون أن الحرب في مصلحتهم، إلا أنهم يستعدون لجميع الاحتمالات. يشرف الرئيس الإيراني على خلية الأزمات وتصميم خطط موازية للتصعيد العسكري والاقتصادي على المدى القصير والطويل، وللقيام بحملات مضادة سياسية ودبلوماسية.

القادة الإيرانيون منقسمون. يعتقد البعض، رغم أنهم أقلية، أنه يجب على إيران ألا تنتظر مصيرها ليحدده الرئيس ترامب أو فرض العقوبات على النظام. إنهم يعتقدون أن الحرب لن تكون من جانب واحد تمامًا، وقد أظهرت إيران قدراتها ووكلائها في جميع أنحاء الشرق الأوسط. هؤلاء الصقور يفضلون بدء حرب مبكرة، بغض النظر عن عواقبها، والتي في نهاية المطاف يكون للنظام فرصة أكبر للبقاء.

لكن الرأي السائد في إيران هو تجنب الحرب بأي ثمن. على الرغم من خطابهم الصارم، فإن إستراتيجية إيران ليست إثارة أو جذب الولايات المتحدة لحرب عظيمة. بدلاً من ذلك، سيختاروا الاستمرار، شراء الوقت والانتظار حتى الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة. قد يعد تغيير الرئيس بفجر جديد، أو قد يتبنى الرئيس نفسه سياسة جديدة.

منحت إيران المجتمع الدولي شهرين قبل الانسحاب من الإتفاق النووي. يبدو هذا الفعل غير عقلائي لأنه قد يبرر المزيد من التصعيد الأمريكي، ولكن في الواقع من غير المرجح أن يقوم الإيرانيون بتنفيذ هذا التهديد، مع العلم أنهم سيفقدون النوايا الحسنة للمجتمع الدولي ويزيد من قوة دفع الولايات المتحدة وحلفائها من إسرائيل ودول الخليج العربية.

الإيرانيون متمسكون بالفعل في الوقت الحالي، واتباعوا السبل الدبلوماسية لممارسة الضغط على الولايات المتحدة. لقد تجنبوا المواجهة المباشرة مع كل من الولايات المتحدة وإسرائيل (في سوريا ولبنان). وفي الوقت نفسه، يستكشفون طرقًا بديلة لزيادة التجارة مع الدول المجاورة وتنوع اقتصادهم. لقد قللوا من اعتمادهم على النفط بنسبة 37٪، وفقا لمصادر رسمية.

### النوايا الإسرائيلية

على الرغم من التصورات، لا يبدو أن إسرائيل تفضل الحرب ولن ترغب في دفع الولايات المتحدة إلى حرب كبرى. إسرائيل راضية عن الوضع الحالي للعب، وتعلم أن الحرب لن تخدم الغرض. وحتى لو تم تدمير جميع المنشآت النووية الإيرانية، فإن إعادة بنائها ليست صعبة ولن تؤخر البرنامج إلا ببضع سنوات. وهو ما أنجزته الإتفاق النووي بالفعل. بدلاً من ذلك، فإن هدف إسرائيل هو إجبار إيران على تغيير سلوكها

في المنطقة وتعليق طموحاتها النووية إلى الأبد. نعم، لقد ضغطت إسرائيل من أجل الحرب على إيران لبعض الوقت، لا سيما أثناء إدارة جورج دبليو بوش، وكانت ناقدة شديدة لقيادة أوباما للإتفاق النووي. ترى إسرائيل أن طموحات إيران النووية والعسكرية في جوارها المباشر تهديدات وجودية. فوصلت إيران وعملائها إلى مستويات غير مقبولة من القدرات العسكرية. صواريخ إيران متوسطة المدى قد تكون متناثرة الآن في مناطق مظلمة عبر الحدود العراقية السورية. ومع ذلك، يبدو أن إسرائيل واثقة من قدراتها العسكرية التقليدية وغير التقليدية عندما يتعلق الأمر بالحرب على إيران.

## العراق وقادته

لطالما كان العراق مسرح خلفي أساسي للمنافسات والتناحرات العالمية والإقليمية، وهو في وضع محفوف بالمخاطر. لقد أقامت كل من الولايات المتحدة وإيران منذ فترة طويلة شبكة تحالفاتها بين الجهات الفاعلة المحلية واستخدمتها لصالحها. من الواضح أن إيران تغلبت بمرور الوقت على عملية صنع القرار (من أعلى إلى أسفل وبالعكس) في العراق، وهي أكثر ثقة في تحيز العراق الخفي. إن العديد من الجهات الفاعلة المحلية (حكومية أو غير الحكومية) قد انضمت إلى إيران منذ زمن طويل أو تصرفت كوكلاء ومستعدة للقتال إلى جانب إيران في حرب وجودية. باستخدام نفوذها الواضح، تحاول إيران تعزيز التجارة الثنائية مع العراق، خاصة فيما يتعلق بالنفط والغاز، ومن المرجح أن تستخدم العراق لتجاوز أو حتى إنهاء الحصار الأمريكي. ترغب إيران في أن يصدر العراق كميات أقل من النفط، وأن يثير ارتفاعاً في أسعار النفط العالمية، الأمر الذي قد يعرقل الخطط الأمريكية ويضع حداً للعقوبات. في هذا، فشلت إيران حتى الآن.

الولايات المتحدة، من ناحية أخرى، تمارس الكثير من الضغوط على العراقيين، محذرة إياهم من أي تعاون خادع أو غير مرغوب فيه مع إيران. بالطبع، تقدر الولايات المتحدة أن العراق هش للغاية وقد يزيد الضغط المفرط عليه من زعزعة الاستقرار وربما يتزلق أكثر إلى احضان إيران. ومن المثير للاهتمام، أن العديد من القوى الفاعلة المحلية يعتقدون أن الحرب على إيران ستجلب فرصاً جديدة بما فيها تغير ديناميات الشرق الأوسط الحالية وتحرر العراق من الهيمنة الإيرانية التي لم تساعد حتى الآن لتعزيز حكم القانون أو الديمقراطية أو الرخاء الاقتصادي. تعتمد مثل هذه الافتراضات غير الواقعية والمفرطة في التفاؤل بشكل كبير على نوايا الولايات المتحدة التي لم يتم التعبير عنها بعد.

في المقابل، هناك آخرون محبطون ببساطة من سياسات الولايات المتحدة والطريقة التي يعاملون بها العراقيين. فهم يرون القليل من الوضوح أو القدرة على التنبؤ أو الاستمرارية في سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق. لا يمكنهم أن يروا أن أولويات إدارة ترامب تكمن في الاستقرار أو الديمقراطية في المنطقة، وأن سياساتها في العراق هي في المقام الأول في سياق إيران. استخدمت الولايات المتحدة مؤخراً لغة تهديد أكثر من مبادرات الشراكة لكسب العراقيين، على عكس تلك المستخدمة من قبل الإدارات السابقة.

ليس من المفاجئ إذن أن يكون العراق قد جذب الكثير من الاهتمام العالمي والتدقيق الأمريكي والإيراني. تتم مراقبة كل خطوة أو حدث أو سياسة من قبل الدولة العراقية أو الجهات الفاعلة غير الحكومية بعناية. فعلى الزعماء العراقيين التفكير مرتين قبل أن يقفوا مع أي من القوى المتنافسة، أو يطلقون سلسلة من الأحداث. ففي الأخير، يمكن للأسماك الصغيرة أن تكون ضحايا فقط في بحر من أسماك القرش والحيتان القاتلة. التوصية السياسية المنطقية الوحيدة التي يمكن تقديمها هنا هي انتظار هذه العاصفة والبقاء محايداً تماماً.